قصص

عزيز نيسين

لا تنزعج

ترجمة: فيصل نور

IWAN PUBLISHING HOUSE
ايوان للطباعة والنشر والتوزيع

لا تنزعج

عزيز نسين

لا تنزعج

قصص

ترجمة: فيصل نور

IWAN
PUBLISHING HOUSE
إيوان
للطباعة والنشر والتوزيع

عنوان الكتاب: لا تنزعج
المؤلف: عزيز نسين
المترجم: فيصل نور
الطبعة الثانية: 2008

دار كيــوان
للطبـاعة والنشـر والتـوزيـع
الحلبوني . دمشق . سورية تلفاكس: 00963 11 2217240
E- Mail: kiwanhouse@mail.sy

KIWAN Publishing House – Damascus – Syria
Telefax: 00963 11 2217240
E- Mail: kiwanhouse@mail.sy

ملكة الجمال

أمام زجاج المصّور في باي أوغلو[1] ،جمع من الناس ينظرون إلى صور ملكة الجمال، في واجهة الزجاج صورة كبيرة لملكة الجمال،صورة لوجهها، صور بالمايو في البحر، في البيت، وهي نائمة.. صور كثيرة.

هل الرجال فضوليون أكثر أم النساء؟ لا أحد يعرف، ازدحام مؤلف من نساء ورجال، والموجودون من الخلف يصرخون:

- لا داعي للنظر طويلاً.. من شاهد فليذهب لنشاهد نحن أيضاً.

من يشكُ من الازدحام ينسَ نفسه حين يصبح أمام الزجاج، ولا يعير انتباهاً لأقوال الموجودين خلفه.

- هل هذه هي الملكة؟ هذه ليست ملكة جمال، بل ملكة قباحة.

- والله صحيح.. قف في الشارع خمس دقائق، ستمر من أمامك مئة فتاة أجمل منها.

---

[1] باي اوغلو: حي في استنبول.

- يا ست، قفي على هذا الجنب لنرى نحن أيضاً.
- الجسم! وهل هذا الوجه جميل؟
- نوران أجمل منها بكثير.
- بحق الله.. ما هذا الأنف المتدلي فوق فمها ،كمنقار ديك رومي عجوز!.
- والأذنان.. إنهما مثل الأشرعة.
- ماذا تريد يا..؟
- قدماها كبيرتان..
- من اختارها ملكة، ألم ير فتاة جميلة في حياته؟
- عدا عن كل شيء، فمها قبيح، إنه كبير جداً، ما أبشع ضحكتها! تبتسم كالرأس المسلوق.
- و ما هذا الذي على خدّها؟
- جرح..
- أظن أنه مكان جرح.
- عن إذنكم، لنراها نحن أيضاً..
- كل شيء فيها قبيح، وأقبح ما فيها عيناها المغمضتان. لا يوجد شيء اسمه حواجب..
- إذا أرسلوا هذه الفتاة إلى مسابقة ملكة جمال الكون فسيسخرون منا، والكل سيقول: ألا يوجد في بلد هؤلاء

يأتي الدعم فمن يعرف من هي؟

- طيب يا أخ، وهل هناك دعم في هذا المجال أيضاً ؟ لو كانوا سيأخذون موظفة لتعمل ضاربة آلة كاتبة في إحدى الدوائر لقلنا نعم.. ولكن هذه مسألة بلد بأكمله. شرفنا جميعاً مرهون بهذه القضية.

- انظر إلى وجهها تعرف من هي.

- لا تملأ عيني.

- ولا أنا.

- انظر إلى هذا البطن! هذا الصدر!

- والله عيب، ألم يبق في البلد فتاة جميلة؟ لو كانت شابة فالمصيبة أهون.

- إلى الأمام لو سمحتم.

- قلت لفتوش مئة مرة، ادخلي هذه المسابقة يا بنت.

- لا .. لا شيء معيب في سبيل الوطن.

- من يعرف من هي؟

- طالما أن الدعم وأكل حقوق الآخرين قائم عندنا، لن نصبح رجالاً..

- لماذا تدفش؟ ستراها عندما يجيء دورك. إنها لن تهرب. لو كانت منظراً يستحق المشاهدة، لما تحرّقتَ هكذا.

جديد .

– أرأيت أسنانها؟ ما أكثر الفراغات بينها!

– واحدٌ منها منخور على ما يبدو.

– لا يقال لمثل هذه قبيحة، بل إنها .. ومن يقول إنها جميلة، فهو عديم الذوق.

وبعد أسبوعين وأمام واجهة المصور نفسه، الازدحام نفسه كما كان من قبل،و الصورة لذات الفتاة، نفس الصور لا يختلف الأمر عن السابق إلا بوجود كتابة على الواجهة. إن هذه الفتاة التي مثّلت بلدنا، قد انتخبت ملكة جمال الكون. هذا يدفش ذاك حتى يرى الصور.

– يا روحي كل من يأتي إلى هنا يتمسمر.. امشوا لنرى نحن أيضاً.

من يصبح أمام الصور يتجاهل الآخرين خلفه.

– بدون دعم.. استحقت الفوز.

– واضح، انظر إلى هذا الجسم.

– الجسم فقط؟! يا حلوتي، وجهها أيضاً جميل.

– جميل فقط؟! إنه ممتاز.

– هيّا يا أخي.. اذهب لنرى نحن أيضاً.

– المرء لا يقوى على النظر.

– لا أعتقد، على الأكثر سبعة عشر عاماً أو ثمانية عشر.

– ما هذه العيون؟ أظنها خضراء اللون.

– ليست خضراء، إنها بنفسجية، بين الأخضر والأزرق.

– الحواجب طويلة وسوية.

– ما شاء الله.

– الله يحفظها من عيون الناس، انظر إلى تناسق هذا الجسم.

– يا خالة من فضلك، لنشاهد نحن قليلاً.

– على مهلك يا .. هل انفلقت؟

– ما أجمل الغمّازة على خدها الأيسر!

– لم أرَ فتاة بهذا الجمال في حياتي..

– لو حدثت مسابقة لملكات جمال الكون، فإن هذه الفتاة ستكون الأولى بينهنّ بالتأكيد..

– يا سادة، هل تعرفون أين يكمن ظُرف هذه الفتاة؟ لقد جمعت صفات عرقنا كلها، انظر إلى هذه الظرافة.

– لا تدفش يا أخ، ماذا جرى لك؟

– شعرها جميل جداً.. خيوط خيوط..

– ما هو غير الجميل فيها؟

– خلقها الله، وكسر القالب.

وجهها .. برافو عليها .

– برافو، والله لولا مصارعونا، وجميلاتنا، لما عرفنا أحدٌ في العالم.

– هل تعلم أنها دعاية جيدة لبلدنا، لم يبق أحدٌ في العالم إلا وسمع باسمنا .

– نظرتها ..! كم هي بريئة!

– كل شيء فيها يدل على أنها من عائلة أصيلة.

– لا تدفّش يا أخ، عندما يأتي دورك ستراها أيضاً .

– أأقول شيئاً؟ الحقيقة أن الحكم يميّز الجمال حتى لو كان هناك دعم.

– لا .. الأمر يختلف هنا، شرف البلد مرهون بهذه القضية، لا يوجد دعم هنا .

– الفتاة بيّضتْ وجهنا أمام العالم.

– نعم.. إنه حدث يفخر به كل الوطن، لا يوجد هنا معارض أو موافق.

– يا عزيزي، برأيكم من سيفوز بالانتخابات، الديمقراطيون أم الشعبيون؟

– حدْسي قوي جداً، من أول مرة رأيت فيها صورة هذه الفتاة، قلت إنها ستصبح ملكة جمال، لذلك اسمع: الديمقراطيون سيفوزون في هذه

علبة المعلبات

كما يقولون، المصائب عندما تأتي، تأتي مجتمعة. الليلة التي زارنا فيها السيد كمال وعائلته، لم يكن في البيت طبخ جاهز.

قالت الأم لابنها:

- اذهب إلى الدكان، واجلب علبة معلبات.
- أي نوع من المعلبات يا أمي؟
- أي نوع تجده، محشي، فاصولياء،...

جلست في الصالون مع الضيوف. نظر كمال إلى ساعته وكان واضحاً أنه ملَّ لأن الطعام تأخر.

تكلمنا عن الرسم، وتكلمنا عن القصص، وانتهى الكلام.. ما هذه المائدة العظيمة التي لا تجهز؟ ثلاث نساء في البيت لم يستطعن تجهيز مائدة طعام؟! اقتربت الساعة من التاسعة. تناولت موضوع الشعر كي أشغل الضيوف، وهذا الموضوع يطول.جَلَبة كبيرة في المطبخ، مطرقة، قدّوم..قال كمال بلهجة ساخرة:

تعالت الأصوات من المطبخ:

- ياه.. هذه لا تفتح هكذا، أين مفتاح العلب؟

- أعطني إياه.

- اترك يا روحي، اعطني السكين.

سمعنا صراخاً..

ذهبت لأرى ماذا يجري، الدم ينزف من يد زوجتي، وعلى الأرض العلبة، ومطرقة وقدُوم، وسكاكين ومفتاح علب.

- ما هذه الفوضى؟! الضيوف ينتظرون الطعام، وأنتم تتضاربون؟

قالت أمي:

- قلت لزوجتك، المعلبات لا تفتح هكذا..

ابنتي تضمد جرح أمها، أخذت أمي العلبة والمفتاح تحاول فتحها، وهي تتكلم:

- يا روحي، كل شيء له طريقة.. هل تُفتَح علبة معلبات بالمطرقة؟إنكم لا تسمعون كلام من هم أكبر منكم.

أرادت أن تقول أكثر، لكنها صرخت:

- الله يجازيهم، ثم رمت المفتاح والعلبة:

- كيف تصنع العلب في هذا الزمن؟ قديماً كنا نأخذ العلبة بيدنا، ونقول بسم الله، وندورها، فتتمزق مثل الورق.

جاء دوري في الكلام، أغمضت عيني وفتحت فمي، ولم أترك شتيمة لابني الذي اشترى العلبة.

- ألا يوجد لديك عقل؟ عندما تشتري معلبات، ألا تطلب من البائع فتحها؟! أسرع قبل أن يغلق الدكان ليفتحها لك.

- يا بابا والله قلت له، لكنه رفض فتحها..

- كيف لا يفتحها؟

- لا يفتحها.. جاء الصانع مرة يفتح علبة فجرح يده بالوريد، وصل المشفى بصعوبة وكان يصرخ.لذلك قال لي البائع:

- أنا لم آت بروحي من الشارع!

- خذها وبلّغه تحياتي ليفتحها لك.

دخلتُ غرفة الضيوف، طبعاً سمع كمال أصواتنا، فقال:

- ما هذه الأصوات؟ إذا كان من أجل الطعام، فلا تتعبوا أنفسكم، سنذهب.

- لا..لا يمكن أن تذهبوا، كيف تذهبون في هذا الوقت؟ غلطة ولد، اشترى علبة معلبات ولم يفتحها له البائع. حاولت أمه فتحها فجرحت يدها، وتدخلت أمي فجرحت هي أيضاً، والآن أرسلتها إلى البائع ليفتحها لنا. عدم التفكير يعذب الأيدي والأقدام.

قالت زوجة كمال:

المعلبات. قبل أسبوع اشترى جيراننا علبة سردين، واجتمع كل أهالي الحي ولم يستطيعوا فتحها.

أخرج كمال من جيبه سكيناً لها عدة رؤوس، ثم قال لزوجته:

- هل ترين هذه؟ إنها لا تفتح المعلبات فقط، بل تفتح خزّنة.

أخرج شقيق كمال شيئاً من جيبه وقال:

- سكينك فات أوانها، حَمْلها مشكلة. هذه تشبه العود لكن ميزاتها كثيرة، إذا أمسكتها هكذا تفتح بها قنينة كازوز، و إذا أمسكتها هكذا تفتح بها تنكة زيت مثلاً. ولو ضاع مفتاح الخزانة في البيت، تدخل هذا الجزء في الثقب فتفتح الخزانة، لها أربع عشرة ميزة، أحضرتها معي من أمريكا، يجب على كل فرد أن يقتني مثلها.

كمال:

- أنا لا أخالف طريقة آبائنا، هذه من أبي، لا تكتفي بعلبة معلبات، بل تفتح بئر نفط.

دخل ابني والعلبة في يده فقلت:

- هل فتحها لك؟

العلبة مثنية وقد التصق أسفلها بغطائها.

بمن صنعها ومن اشتراها، ثم قذفها بعيداً..

ضحك كمال:

- هاتها إلى هنا.

أخرج السكين (ميراث أبيه)، وأسند العلبة على ركبته وضغط على السكين وهو يشتم البائع بنفس الوقت.

- حمار هذا البائع، كيف يصبح هؤلاء بائعين؟ آخ.. آمان يا ربي آمان..

من حسن الحظ أنه يوجد في البيت صيدلية صغيرة، أسرعنا وجلبنا المعقم، وغسلنا جرحه، ثم ربطناه. لقد تمزق بنطاله.

وبالمناسبة لسان كمال كالمبرد، وألف شتيمة لا تساوي قرشاً عنده:

- هذه ليست علبة معلبات، إنها علبة أسرار، حقيرة، في داخلها قطعتان من المحشي أو ثلاث. هل توجد أسرار الدولة فيها لتصنع هكذا؟

فقال شقيق كمال:

- اعطني العلبة، وانظر كيف تُفتَح العلب.

المفتاح الأمريكي لم ينفع أيضاً، قلبها من كل الجهات، ولم يستطع أن يدخل الآلة.

- لعن الله أمها! ألا يوجد قدُوم؟ فقالت زوجة كمال:

أعطوني مسمار حائط كبير.

الكل يحاول بالقدوم، بالمسمار ولا فائدة. فقلت:

- أعطوني العلبة.. وقعت الفأس في الرأس، أخذت العلبة إلى المطبخ، أمسكت الساطور الذي أكسر به العظام، ونظرت إلى علبة المعلبات وكأنها عدوٌ غاشم.. لا أريد فتحها بل تمزيقها وتقطيعها. ضربت العلبة بالساطور بكل قوتي. تزحلقت العلبة وطارت في الهواء، وضربت السقف ثم الجدار، مثل كرة البلياردو، ثم اصطدمت برأسي ووقعت على الأرض. وضعت يدي على رأسي:

- الله يلعن أبو..

تورم رأسي مثل الجوزة.. قال كمال:

- لا يفتحها إلا الحداد.

وقالت زوجتي:

- حداد؟ نعم..إن جارنا القاطن تحتنا حداد، سآخذها إليه، ربما يفتحها.

تحلقنا حول العلبة المعوجَّة، وكأنها قنبلة يدوية ستنفجر، ورمقناها بنظرات تقدح شرراً.

قُرع الباب، عندما كانت زوجتي تجهز نفسها للذهاب إلى بيت الحداد.

- سمعنا ضجة وصراخاً عندكم. هل حدث شيء؟

داخل هذه العلبة؟ من أجل خمس أو عشر قطع من المحشي، لا تصنع العلبة بهذه القوة!

بعد أن روت زوجتي كل ما جرى لزوجة الحداد، قالت:

- آه يا أختي، لا تسألي ماذا جرى لنا. دماؤنا غسلتنا، منا من جُرح في يده، ومنا من جرح في رأسه..

قالت زوجة الحداد:

- يا لطيف!.. يا لطيف!..

- هل يستطيع زوجك فتحها؟

كمال:

- إذا لم يكن لديه مثقب لا يمكنه فتحها.

شقيق كمال:

- لا ينفع مثقب الحديد معها، يلزمه رأس فولاذ.

قالت المرأة:

- لو كان زوجي في البيت لفتحها، إنه غير موجود، لكن الصانع في البيت. سأرسله لكم، ربما يستطيع فتحها.

قلت:

- لا يا سيدتي هذا ليس عمل الصانع.

- إنه ماهر، عمره اثنا عشر عاماً، لكنه يتقن كل الأعمال. جاء من القرية تواً.. المسكين لم يتمكن من متابعة دراسته، سيتعلم الحرفة هنا.

المنظر وقالت له:

- يوسف، افتح هذه العلبة يا ولدي.

كلنا ينظر إلى هذه العلبة وكأنها آلة موت. نظر الولد إلى هيئتنا، ثم أخذ العلبة من الأرض، وقلّبها بين يديه.

قلنا:

- لا تستطيع فتحها دون آلة.

- نحن الكبار لم نستطع فتحها، هل لولد بطول الإصبع أن يفتحها؟

- على مهلك يا ولدي، قد تؤذي نفسك.

وضع الولد العلبة في يده اليسرى، وفتحها باليد اليمنى، وكأنه يفتح علبة دخان.

- تفضلوا..!

فتحنا أعيننا وفغرنا أفواهنا:

- كيف فتحتها يا ولدي؟!

- ألا تعرفون القراءة والكتابة؟! هنا مكتوب كيف تفتح..

كُتبَ على ورقة فوق العلبة:

"أمسك العلبة من جانبها الأعلى، ودوِّرها إلى اليسار".

لكثرة دهشتنا نسينا أن نشكر صانع الحداد.

لا تنزعج

أحب حكمت النحّات كثيراً. رجل طيب، لكن عيبه الكبير أنه مهذب جداً. أعرفه منذ خمسة عشر عاماً، وبيننا صداقة عميقة، ومع ذلك يناديني "سيادتكم" "شخصكم الكريم". إنه مهذب لدرجة أن الناس يظنونه يسخر منهم.

في بداية معرفتي به، ظننته يسخر مني، لأن رجلاً عادياً مثلي لا يخاطَب وكأنه رئيس ناحية من الحزب الحاكم، أليست هذه سخرية؟

عرفت سبب تهذيبه الزائد فيما بعد. إنه رجل عاش في القصر لهذا هو مهذب جداً. جده كان قائد المجدِّفين في مركب السلطان عزيز. وهل حفيد قائد مجدِّفي مركب السلطان سيتكلم بلهجة عادية؟

عندما نقول "مجدفين" يخطر ببال المرء القراصنة الذين كانوا في سفينة بربروس[٢]. صدورهم مكسوة بالشعر، طولهم بطول العمود، عضلاتهم قوية، يشدون السفينة بأقدامهم لو

---

[٢] بربروس: بحار قوي في البحرية العثمانية.

الأحفاد كمستوى دخلنا في الحياة، وعندما أعلنت نتائج آخر خطة لتطوير الاقتصاد في بلدنا، أخذ حكمت طول مواطن ديمقراطي.قصير، لطيف، صاحب روح رفيعة، أنيق، والمعنى أن كل المواصفات التي تبقيه جائعاً موجودة فيه.

منذ أيام ذهبت إلى بيت صديقي القديم، فعندما نلتقي نحن الاثنين نعمل مثل كرا كوز وعيواظ، يقول لي:

- شخصكم الكريم.
- يا حكمت، لا تقل لي شخصكم الكريم.
- على راسي يا أفندي.
- دعك من هذه أيضاً.
- حاضر يا سيدي.
- ستقتلني! أليس من الأفضل ألاّ تقول لي يا سيدي؟
- حاضر يا أفندي، حاضر يا سيدي.

ليس هذا الكلام معي فقط، مع البائعين، الدهان، الإسكافي، الجيران، لكل الناس.

وبالتالي على المرء أن يحترمه ويحسن الكلام معه، رغماً عنه، و أن يجامله، ولكني لا أعرف المجاملة، وهو لا يقدر أن يكون فظّاً.

بيته صغير، مؤلف من غرفتين، جلسنا في الغرفة الكبيرة. وعندما هممت بالجلوس على الكرسي قال:

- أرتاح.
- لا ترتاحون يا بيك، تفضلوا إلى هنا .

جلست على السرير.

- آه.. عفواً! إنكم غير مرتاحين هنا .
- لست متضايقاً .

هرع إلى الغرفة الثانية وأحضر وسادتين، ثلاثة، ووضعهم تحت يدي ووراء ظهري:

- أرجوكم، لا تضايقوا أنفسكم، خذوا راحتكم.
- إني مرتاح، استرح أنت.
- إنكم غير مرتاحين في جلستكم.
- لا يا أخي، مرتاح جداً.
- بالله عليكم قولوا، هل أنتم متضايقون؟

لا يترك لي فرصة لأتكلم كلمتين..

- إنكم غير مرتاحين هناك، تعالوا هنا وأسندوا ظهركم.

إنني مرتاح وحتى يستريح هو. جلست في الزاوية، ثم احضر عدة وسائد.

- اصدقوني القول، هل أنتم مرتاحون؟
- مرتاح يا أخي، استرح أنت، والله العظيم مرتاح.
- أشعر أنكم غير مرتاحين.

- أتزعجكم الرياح؟ لأغلق النوافذ.
- هكذا جيد.
- ألستم منزعجين؟
- لا..
- أتضايقكم الشمس؟ لأسدل الستارة.
- لا يا أخي، هكذا ممتاز.
- أشعر أن سيادتكم غير مرتاحين يا أفندي.
- كيف؟! أتقصد أنني مريض؟
- العفو، أقصد أن مكانكم غير مريح.
- إنني مرتاح.. مرتاح.
- تفضلوا إلى الداخل هناك سترتاحون أكثر.

دخلنا الغرفة الثانية.

- بحق الله، لا تؤاخذني.
- أستغفر الله، مؤاخذة ماذا يا روحي؟
- بالله عليكم لا تؤاخذوني.
- لماذا تقول هذا؟ لا يوجد شيء يستحق المؤاخذة.
- هل انزعجتم؟
- لم أنزعج.

إلى هنا.

ندخل من غرفة إلى غرفة، من زاوية إلى زاوية، ثم يأتي بالوسائد.

- هل هذا جيد؟
- نعم جيد، جيد جداً.
- لا تزعجوا أنفسكم.
- إنني مرتاح.
- لا تؤاخذني، معلومكم أن الوضع...
- لا مؤاخذة.

لا ينطق سوى: لا تؤاخذوني، لا تنزعجوا.

وأخيراً جاء الطعام.

- تفضلوا يا سيدي.

باشر أثناء الطعام:

- إنكم غير مرتاحين على هذا الكرسي، غيروه.

وعندما أهم بوضع ملعقة الشوربة في فمي يقول:

- لا يا بيك، إنكم غير مرتاحين، سأجلب أريكة لتجلسوا عليها.
- لا أريد أنا مرتاح هكذا.
- تفضلوا رجاءً.

- تفضلوا .. تفضلوا.
- شكراً، إنني آكل.
- لماذا لا تأكلون من السلطة؟
- آكل.. آكل.
- هل ملحها قليل؟
- لا ..
- رجاء، لا تؤاخذوني.
- استغفر الله.
- تفضلوا، تفضلوا.
- شكراً، شبعت.
- كرامة لوجه الله، كلوا.

امتلأ بطني، لكنه كان يلح كثيراً، لذلك كنت آكل.

- فهمت، الطعام لم يعجبكم.
- إنه لذيذ جداً، الله يسلم الأيادي.
- بالله عليكم، كلوا، تفضلوا، تذوقوا البيتزا، إنكم لا تأكلون يا بيك.
- أكلت، أكلت يا بيك.
- لا تؤاخذونا .. والله لم تشبعوا.
- والله شبعت.

زاوية إلى زاوية، ومن كرسي إلى كرسي، كي لا أنزعج.

"تفضل بحق الله" "شكراً" "إنكم غير مرتاحين" "مرتاح والله" "لا تؤاخذوني" "أستغفر الله" "شخصكم الكريم" "يا بيك" تعالى الصراخ. ثم غادرت منزل حكمت دون أن نتكلم كلمتين.

مساءَ أمس، قُرع الباب، وإذا به حكمت النحات.

- تفضل يا حكمت بيك.

- لا أريد أن أسبب لكم إزعاجاً.

- ما هذا الكلام يا رجل؟ سررنا برؤيتك، تفضل.

- لن أزعجكم كثيراً.

- تفضل.

- القصد من إزعاجي لكم.

- أستغفر الله يا رجل..!

- هل كنتم مرتاحين بزيارتنا؟ هذا ما أريد أن أعرفه.

- ارتحت كثيراً، شكراً لكم.

- والله، لم نستطع أن نؤمن لكم أسباب الراحة.

- يا سيدي، والله ارتحت.

- لا لم ترتاحوا.

- لأقعد على خازوق إن كنت أجاملك. لقد ارتحت، ليبلوني الله بشر البلاء ارتحت يا أخي، والله العظيم ارتحت.

انزعجتم.

نفد صبري، فصرخت بصوت عال، اجتمع كل الجيران على الباب:

- لم أنزعج وْلاكْ! الْعَمَى.. قلت لك لم أنزعج!

اختفى حكمت بيك الصغير خلف الباب وقال:

لا يا بيك، لا، لا تؤاخذوني، انزعجتم كثيراً..سامحوني لأني أزعجتكم كثيراً..

مسألة بيع

اتصل مع الإدارة وقال:

- أريد حسن بيك، من فضلك.

- أنا حسن بيك، تفضل.

- آسف، لقد أزعجت سيادتكم.

أمّقت كلمة "سيادتكم" أو "شخصكم المحترم"، فقلت:

- استغفر الله..

- أنا صاحب مجلة "الفنون المختارة".

- حسناً.

- أود رؤيتكم، هل هذا ممكن؟

الرجل يظن أن رؤيتي تتطلب طلباً رسمياً عليه طابع مالي.

- طبعاً ممكن، في أي وقت تريد؟

- غداً في الساعة الرابعة، في دكان إيلان بائع البوظة.

- أين يقع هذا المكان؟

- ألا تعرفونه؟

- الشاعر شتين بوكسال، والكاتب على جمال، وحسين كمال، كلهم يذهبون إلى هناك، في شارع الاستقلال.

اتفقنا على المكان والزمان المحددين للالتقاء، ووضعت السماعة.

في اليوم نفسه وصلتني رسالة تقول:

"السيد حسن: أريد أن أقابلكم لأمر هام، إني انتظركم يوم الجمعة في بيتي، أرجو حضوركم، مع احترامي..".

أصابتني الدهشة، لأني لست من الكتاب الذين تأتيهم رسائل أو اتصالات كثيرة. لحظة، سأعرفكم بنفسي، طولي يصدم النساء لقصره، شعري كشعر المجند الفار من الخدمة، لا على هذا الطرف، ولا على ذاك الطرف. ولو حكم على عمل الإنسان من مظهره لكان كل الناس اتفقوا على أني لست كاتباً، إنما صانع صغير في هذا الحي، لا أهتم بالملابس، الملابس بالنسبة لي، هي التي تستر الأماكن المحرَّمة، وتحميني من البرد و مريحة.

انتعلت الحذاء دون جوارب، والبنطال وقميص صيفي، هكذا تمام.

صادفت زميلي في الشارع، فقال لي:

- صاحب مجلة "الفنون المختارة" في انتظارك عند بائع البوظة، سيطلب منك أن تكتب في مجلته، سألني هل يقبل عن كل قصة مئة ليرة؟ فقلت له:

دخلت دكان بائع البوظة. أي واحد يا ترى من بين هؤلاء؟ نسيت أن أقول له، كما في الإعلانات التي تنشر في الجرائد عن الزواج بطريق الرسائل، أن يحمل معه وردة حمراء. إن أصحاب المجلات التي لا تبيع ألف نسخة يومياً، أو الكتّاب والشعراء الذين يكتبون في هذه المجلات يظنون أنه من الضروري أن يعرفهم كل الناس.

بدأت أبحث عنه بكل دقة. أظن أنه ذاك الرجل الذي وضع أمامه كتباً ومجلات، وفي فمه غليون، ولا شعر على رأسه. اقتربت منه وقلت:

- هل أنت صاحب مجلة الفنون المختارة؟

قلب وجهه لأنه ظن أني واحد من العمال الذين يعملون هنا، وقال:

- أي نعم، ماذا تريد، هل اتصل بي أحد؟
- لا.. اتفقنا أن نلتقي هنا.. أنا حسن..
- أي حسن؟!

ضَرَبَهُ العمى..

- تكلمت معي بالهاتف أمس.
- هاه، هل أنت ذلك الرجل؟

قالها وهو مندهش.

- تا..تا.. تفضل!

وواضح أن قلبه لم يطمئن:

- هل أنت تكتب تلك القصص؟
- نعم، أنا أكتبها.
- هل هذا صحيح، أنت تكتبها؟
- والله أنا أكتبها، الله يعمي بصري إن كنت أكذب.
- غريب!
- لأكون قليل ناموس إن كنت أكذب.

يكاد يقول لي أكتب هنا لأرى. أحياناً يقول لي أنتم، ثم ينظر إلى مظهري ويقول: أنت. مرة أنت ومرة أنتم، "سيادتكم". سألته:

- لماذا أردتم رؤيتي؟

(دُهش وقال: سألت عنك وناديتك لأراك!).

ثم تذكر فجأة:

- أنا ..هاه، نعم، صحيح أريد منك قصصاً.

الرجل يطلب القصص، وكأنه موظف جاء ليحجز على ملكي.!

- حاضر.. سأكتب لكم.

ما زال الرجل ينظر إلي ويتكلم بصوت عالٍ:

- غريب..! عجيب!

- سأكتب لكم القصص.

- مجلتي أسبوعية، أريد منك كل أسبوع قصتين، ويجب أن تسلمها في يومها، ولا مزاح عندي في العمل. وهذا شرطي الأول، والشرط الثاني، أن لا يكون لديك أخطاء إملائية.. انتبه.

- حاضر.

- اكتبها مقروءة، والأحسن أن تكتبها بالآلة الكاتبة.

سبق وقال لي صديقي:سأل صاحب المجلة، هل يقبل مئة ليرة؟ والآن يتساءل كيف سأعطيه مئة ليرة؟

نهض واقفاً وقال:

- لدي عمل في مكان آخر، أنا ذاهب. أدار ظهره و قال:

- أحضر القصص فوراً، إلى اللقاء.

- لحظة يا سيدي، لم نتكلم عن النقود.

- الأمر سهل، أمامك رجل لا يأكل حقك، إذا أعجبتني القصص، سأدفع لك خمس ليرات عن كل قصة. هل يناسبك؟

- والله قليل جداً.

- أنت تعرف.

- طيب لقد قبلت.

وبعد خروجي، اتصلت بالرجل الذي بعث لي رسالة.

- مرحباً أنا السيد حسن.

(أريد أن أخوزقه لشدة غيظي من صاحب مجلة الفنون المختارة).

- وصلتني رسالتكم، ومع الأسف لدي عمل كثير، لا أستطيع المجيء إليكم.

- أمان يا بيك.. أرجوكم.

- مستحيل.

- غداً؟

- حتى أرى دفتر مواعيدي.. هاه، غداً غير ممكن، لا يوجد لديّ وقت.

- في اليوم الذي يليه؟

- لا، إنني مشغول.

- يا بيك، المسألة مهمة جداً.

- وما هي، ماذا تريد؟

- إننا سنصدر جريدة جديدة، ونريد منكم قصصاً.

- من أجل هذا تطلبني لعند قدميك؟

- العفو يا سيدي...، هل ستكتبون القصص؟

- لا، ليس لدي وقت.

- لكن يا بيك.

- لا لكن ولا غير، لا أستطيع..

- ليست المسألة مسألة مادية، ليس لدي الوقت، عملي كثير.

- كرامة لنا يا بيك.

- عندما تصدر الجريدة سأفكر..

- يعني قبلتم، وشكراً لكم كثيراً. ليس من قيمتكم أن تكتبوا في جريدتنا لكن كوننا جُدد سندفع لكم مئة ليرة في البداية، ما قولكم؟

- قليل، من أجل مئة ليرة لا أمسك القلم بيدي.

- لا تخجلوني يا بيك، لنتفق على مئة وخمس وعشرين ليرة.

- كرامة لكم قبلت، ولكن لا مزاح لدي، النقود أقبضها فوراً.

- حاضر.

- ترسلون كل يوم أحداً ليستلم القصص مني.

- أمركم.

- اتفقنا إذاً. وأغلقت السماعة.

والآن أكتب إلى مجلتين: واحدة بخمس ليرات، وواحدة بمئة وخمس وعشرين ليرة. وما علاقتي أنا فليدفع النقود من يدفعها، أسلّي نفسي أنني اقبض عن كل قصة خمساً وستين ليرة.

هَرَب مجنون

كنت ذاهباً من أمين أونو[٣]، إلى قدي كوي[٤]، وعندما وصلت إلى الجسر سمعت صراخاً:

- هرب.. لقد هرب! بدأت الصفارات تزعق، والشرطة تركض، تداخل الناس في الزحام على الجسر، توقف الجميع عن الحركة، كل واحد يسأل الآخر:

- ماذا هنالك، ماذا جرى؟

- أفلت مجنون من أيدي الشرطة.

امرأة عجوز:

- ماذا جرى لشرطتنا؟ قديماً كانوا يمسكون أي واحد بسهولة، واليوم يفلت أي واحد منهم بسهولة.

اقترب رجل مني وقال:

- يقلبون الدنيا لأن مجنوناً أفلت منهم، وكأننا نحن العاقلون!

---

[٣] أمين أونو: حي في استنبول.

[٤] قدي كوي: حي في استنبول.

رجل آخر:

- لا يا سيدي، هذا مجنون متوحش، يهاجم الناس ،قتل ثلاثة أشخاص.

مشيت مع الرجل، وحكى لي طرائفَ عن المجانين، طرائفه مضحكة،ويحكيها بإتقان، بحيث لا تستطيع أن تمنع نفسك من الضحك، الرجل محترم وظريف:

- اسمعوا هذه الطرفة، سألوا أحد المجانين في مشفى المجانين: "كم عددكم داخل المشفى؟"

فأجابهم:

- "كم عددكم أنتم في الخارج؟" . انظروا مثلاً إلى هذا الرجل.

نظرت إلى الرجل الذي أشار إليه، فقال: لعله المجنون الهارب.

ربما لأن هيئته لا توحي بأنه عاقل، يتكلم بصوت عال ثم منخفض ويرفع بيده ويصرخ، كأنه يتكلم مع شخص ما .

- لا شك أنه المجنون.

قلت له:

- لنخبر عنه كي يمسكوا به.

نظرت إلى الرجل الذي أشار إليه، فإذا به يسرع تارةً ويتوقف تارةً أخرى، يعّبس مرةَ، ويضحك أخرى، يحمل في يده بعض الأغراض، فقلت:

- عَالّ، هذا هو المجنون، لنخبر الشرطة.

- استمع إلى كلام الرجلين السائرين أمامنا .

أمامنا رجل سمين، والآخر عملاق (طويل عريض)،يتكلمان بصوت عال: ستمسك البائع..

- بكم الليمون؟

- بخمسين قرشاً .

- خمسون قرشاً؟..

- تعال إلى هنا . ستمرجحه من رأسه على هذا الجسر فوراً، ثم اذهب إلى بائع البقدونس،

- بكم الباقة؟

- بعشرة قروش.

- آه يا غلوجي، وتمرجحه هو الآخر، ولا تأبه لدموع عينيه، إذا مرجحت اثنين أو ثلاثة، انظر لوضع البلد، هل يبقى فيها غلاء؟

يقول الآخر:

- الزراعة يا أخي، الزراعة أولاً، وبعدها الحرية، لم يبق شبر دون زرع. لقد زرعت في المزهريات على الشرفة بصلاً، ولو فعل كل مواطن مثلي لما كان هناك مشكلة بصل. خذ مثلاً الخيار والفاصولياء..لو أن كل واحد زرع الخيار في بيته، هل يبقى مشكلة خيار؟

البلاد، هل تكون هناك حرية؟

الاثنان يتكلمان في وقت واحد، ولا أحد منهما يسمع الآخر، فقال العملاق:

- العصا، يا أخي، العصا أبوس روحها، فعلاً إنها من الجنة. هذا الشعب لا يمشي إلا بالعصا.

ومن طريقة كلامهما سوية كنا نسمع: "قبل الدستور.. فاصولياء، يا أخي فاصولياء، يتمسكون بكلمة حقوق، مرجح الرجل من رأسه، بعد الفاصولياء أزرع على جوانب الشوارع شوندر سكري..".

- سألت رفيقي:

- هل المجنون واحد أم اثنان؟

- لا أعرف.

- هذان مجنونان، لنخبر الشرطة.

وبينما كنا ننزل الدرج لنخبر الشرطة تحت الجسر، كانت سيدة جميلة تصعد الدرج،ولأن الجو حار، فقد لبست ثياباً رقيقة، وشابان يلهثان خلفها يتكلمان وعيونهما على ساقيها:- امرأة مثل الكتاب، اقلبْ واقرأ.

- كلميني يا أختي.

- إن شاء الله أنام أنا وتقلبين فوقي.

- أوووف.. ياه..

بالضرب بحقيبتها بدأت تصرخ. توحش الرجلان فجأة وقلبا السيدة..

قلت لرفيقي:

- لا بد أنهما المجنونان الهاربان...نزلنا الدرج. كان ركاب السفينة ينتظرون أن يفتح الباب الحديدي ليركبوا السفينة، فقال رفيقي:

- استمع إلى هذين.

الرجل يصرخ بزوجته:

- سآخذ رأسي وأهرب.. والله العظيم سأهرب.

- أهرب.. وهل سأنتظرك؟ سأهرب قبلك، الكثيرون يريدون الزواج مني.. انظر إلى نفسك، كم أنت قبيح.

طاقْ.. ضرب زوجته على وجهها. بكاء، شتائم، قامت القيامة.

رفيقي:

- لنهرب فوراً، وإلا اعتبرونا شاهدين.

مع اقترابنا من رأس الجسر في قدي كوي،سمعنا صراخ امرأة، قدمها خرجت من شباك السيارة. تحاول الهرب:

- النجدة .. إنهم يخطفونني..

قلت:

العظيم مجانين.

بدأ رفيقي يحكي طرائف أخرى عن المجانين. دخلنا من الجسر إلى قدي كوي، ونحن نضحك،جاء شرطيان و أمسكا برفيقي:

- كيف أفلتَ يا ..؟ امشِ..
- فقال رفيقي:
- إلى اللقاء يا زميل.

أردت الذهاب إلى حيث أخذوه. لم أستطع، فقلت:

- مع ألف سلامة يا زميل..

سبع افتتاحيات في اليوم

رجل كالزئبق، وجد مكانه، عمله كثير، بعض الناس يشبهون لوح الباب يذهبون ويعودون بطولهم (على الفاضي)، مثل الكرة يدورون في نفس المكان، إنه يختلف عنهم.

ودَّع في كراج حيدر باشا الكبار الذاهبين إلى أنقرة في الساعة التاسعة، وفي العاشرة إلا ربعاً أسرع إلى كراج سركجي لاستقبال وفد تجاري أجنبي، وفي الاستقبال قال كلاماً جميلاً: "-يظهر من التاريخ المشترك بين البلدين أن هذين البلدين المتآخيين، سيمدان لبعضهما يد المساعدة .. المساعدة في حماية قلعة الـ...، وتأمين...، المواد الضرورية كالسماد، وشكّالات الشعر، وطناجر الضغط، والمانيكور، في أقساط طويلة الأمد.. نحن واثقون. أهلاً بكم!".

بينما كان يقول هذا الكلام، كان يفكر بما سيقوله في افتتاح معمل الفطر في الساعة العاشرة والنصف في مكان بعيد عن المحافظة.

عندما وصلت سيارته إلى باب المعمل، استقبله الجمهور هناك استقبالاً حافلاً، وصفقوا له تصفيقاً حاداً، صافح بعض

شارع أُصلح حديثاً، فصعد المنبر فوراً وخطب قائلاً:

- أيها المواطنون إن معمل الفطر الذي نفتتحه اليوم، هو السادس في بلادنا (باله مشغول بما سيقوله في افتتاح الشارع).. الفطر كما تعلمون.. مفيد،.. لهذا السبب فإننا .. بإنتاج الفطر، نأتي في المرتبة التاسعة والثلاثين. إنه الفطر ....نعم.

نزل عن المنبر، ودشّن المعمل بقص الشريط الحريري. ركب سيارته مسرعاً إلى الشارع، الذي سيفتتحه. وفي الطريق فكر بما سيقوله في الافتتاح.

على جانبي الشارع احتشد جمهور من حزبه. نزل من السيارة واستُقبل بالتصفيق. بعد انتهائه من هنا سيذهب إلى مكتبه ليستقبل مدير قسم النشر في الأمم المتحدة ومعاونه، ففكر بما سيقوله لهما. وكي ينتهي من تدشين الشارع بدأ الكلام مباشرة:

- أيها المواطنون إن المعمل الذي نقوم بافتتاحه اليوم بكل سرور (فشدّه الرجل الواقف على يساره وقال له يا سيدي هذا ليس معملاً، إنه شارع).

فتابع كلامه: "بعد تدشين المعمل جئت إلى هذا الشارع، إن هذا الشارع دليل واضح على تطوير الديمقراطية في بلدنا، لقد أصلحناه بزمن قياسي خلال شهرين ونصف، كي يمشي المواطن

الشارع. إن الإهمال من قبل الإدارة السابقة قد خرّب كل الشوارع.. فبدأنا الإصلاح من هذا الشارع. أكل لقمتين بسرعة، ركب سيارته مودّعاً بالتصفيق. استقبل وفد الأمم المتحدة في مكتبه وقال لهم:"نحن مسرورون من تلاحم الدول في الأمم المتحدة، لأن هذا التلاحم يشكل جبهة وحدوية ديمقراطية... (يتكلم إلى الوفد، وفي الوقت نفسه يفكر ماذا سيقول في تدشين معمل ماكينات الحلاقة).. من حقنا طبعاً. يد واحدة لا تصفق، كي تصفق تحتاج إلى يديك الاثنتين. (يجب ألا يتأخر عن تدشين معمل ماكينات الحلاقة).. لهذا السبب بتعاوننا مع الأمم المتحدة نتلاحم كثيراً".

ثم انحشر بين المدير ومعاونه وابتسم لعدسات الصحفيين، الذين التقطوا له صوراً (ديمقراطية).

ليس لديه وقت. ركب سيارته وتوجه إلى المعمل، وحسب برنامجه اليومي يجب أن يذهب من هنا ليقوم بتدشين صنبور ماء، سيركب على عين ماء تاريخية.

وصل إلى معمل ماكينات الحلاقة في آخر دقيقة، أعطوه المقص فوراً، ثم بدأ الكلام:

- " أيها المواطنون الأعزاء! برأيي أن موضوع الحلاقة مهم جداً، كل إنسان متقدم يجب أن يحلق مرة في السنة على الأقل.(باله مشغول بتدشين العين التاريخية).. لذلك فقد زدنا

كل مزارع على ماكينة حلاقة.. العين.. يعني نعم، وكل مواطن سيمتلك ماكينة حلاقة، وإن هذا المعمل هو الأكبر في البلقان، والشرق القريب والشرق الأوسط، وفي السنة سنستورد إلى الخارج ثلاثمئة طن ماكينات حلاقة".

همس الرجل الواقف بجانبه في أذنه: (نصدر إلى الخارج).

تصفيق، تصفيق، تصفيق، إلا أن عقله في العين التاريخية.

وصلت سيارته إلى العين بعد عشر دقائق، وعند نزوله من السيارة، ذُبح الخروف عند قدميه، بدأ خطابه مباشرة، وقته ضيق:

"أيها المواطنون! إن مجاري المياه.. (شده معاونه من ثيابه: "العين يا بيك، بعدها مجاري المياه").. كما أن مجاري المياه عمل مهم، العين أيضاً عمل مهم. لذلك فقد وضعنا في برنامج أعمالنا هذين العملين المهمين (يفكر بما سيقوله في الشارع الذي ستمدد فيه مجاري المياه).. العين.. نعم العين.. من العين ينبع الماء، وبما أن الماء ينبع من العين فهي مقدسة.. إننا .. مجاري الميـ.. (همس معاونه في أذنه بعض الأشياء)، وقد جعلنا المياه عذبة نقية، باستخدامنا المصافي لتعقيمها..".

في الشارع الذي تمدد فيه بواري مجاري المياه، كان بانتظاره حشد كبير. وكي لا يضيع وقته، صافح أيادي قليلة، وبدأ خطابه:

وخلال مدة قصيرة مددنا المجاري على كامل صدر الوطن مثل شبكة العنكبوت و.. ثم سـ..بعد.. سنتابع التمديد، لأن المجاري تعني.. وبالطبع أنتم تعرفون (باله في الوليمة التي سيذهب إليها)، وزيادة عن أهميتها.(عمل مهم جداً بانتظاره).

في اللحظة الأخيرة، وصل إلى حفل العشاء المقام على شرف وفد أطباء أمريكان اختصاصيي أمراض الأمعاء في فندق كاردان، وبعد أن خلع قبعته، دخل كالعاصفة وتناول كأساً فارغاً، وقال للحضور:

"أهلاً بكم في بلدنا.. أرفع كأسي على شرفكم، بداعي الصداقة التي تجمعنا بكم. فقد عيناكم هذا المساء أساتذة في مدرسة الفتيات الصناعية. إن ماكينات الحلاقة (لكزه المعاون في خاصرته لكزة خفيفة: "عملنا في ماكينات الحلاقة انتهى، نحن الآن في وليمة العشاء). نعم.. نعم.. أهلاً بكم مرة أخرى.. شوي ما في؟ كيف حالكم للمرة الثانية؟".

أجابه رئيس الوفد عن كل أسئلته.

الساعة التاسعة ولم ينته من برنامجه اليومي، وهذه الليلة ستقام حفلة برعايته وعليه أن يذهب لافتتاحها، لكنه متعب جداً، فكريا وجسديا.

في صباح الغد وفي وقت مبكر عليه أن يذهب إلى حيدر باشا للاستقبال ثم إلى افتتاح معمل رب البندورة، ويراقب

ثم عليه إسكات المخالفين في مجلس المحافظة، ماذا يفعل؟ كل يوم هكذا، ولو كان حجراً أو حديداً لما تحمل، لكنه يتحمل (يقول لنفسه):

إنه واجب وطني!..لذلك فهو يصب من أجل الوطن. يفكر بأعمال هذا اليوم، والخطابات والأصدقاء، الوطن، معمل الفطر، إصلاح الشارع، مجاري المياه، العشاء، الحفلة.. عناء هذه الأعمال لا يحتمل إلا من أجل الوطن.

وعندما وصل الحفلة، استُقبل بتصفيق حاد، رأسه يؤلمه، وعيونه تسودّ. يجب أن يلقي كلاماً جميلاً في هذه الحفلة باعتبارها تحت رعايته. كم ألقى من خطابات خلال النهار! وبمشقة انتصب على قدميه مع التصفيق:

أيها الحضور الكريم (رأسه يكاد ينفجر)، أيها الضيوف.. أيها المواطنون الأعزاء! (لم يعد يقوى على فتح عينيه)، هذان البلدان يمدان يد المساعدة لبعضهما دوماً في السماد وشكالات الشعر.. (وتساءل الحاضرون: أي بلدين؟! ونظروا إلى بعضهم بدهشة).. بدَيْنٍ طويل الأمد.. والآن في معمل الفطر الذي نقوم بافتتاحه (قال معاونه "راح وقته يا بيك") ومثلما أصلحنا هذا الشارع سنصلح كل الشوارع.. (ليس هذا يا سيدي).. ومع التلاحم الكبير مع الأمم المتحدة.. (ليس هذا أيضاً). نعم.. في ماكينات الحلاقة.. كل مواطن يجب أن يملك إلى جانب قطعة

العين.. قبل التصليح وبعد التصليح.. أيها المواطنون!.. في مدة قصيرة مددنا المجاري في البلاد (ليس هذا أيضاً).. أهلاً بكم يا سادة.. (ليس هذا هو الخطاب أليس كذلك؟) أي خطاب إذاً؟.. لماذا أتينا إلى هنا؟ استقبال أليس كذلك، استقبال؟ هاه.. نعم، نعم، الحفلة.. إنها تحت رعايتي.. تمام. فهمت..

ضحك الجميع من خطابه الذي يشبه الطرفة. عاد إلى بيته في الثانية ليلاً مرهقاً، لكنه لم ينم. فكره مشغول وهو في الفراش بالخطابات التي سيلقيها في الغد.

آه من حب الوظيفة، ومن وظيفة الحب..!!

لا دَخْلَ لي

-شرطة..؟ الحقوا.. النجدة يا هوه..

وقف جميع المارة، ينظرون إلى هذا الرجل، وكان بين الواقفين أفراد من الشرطة، ولكنهم لم يعيروا انتباهاً لصراخ الرجل، بل شقوا طريقهم في الزحام، وتابعوا.

- شرطة؟ يا شرطة.

غريب.. كل الشرطة أصابها الطَّرَش. هناك شرطي يقف قبالته على الرصيف، ألم يسمع؟

وضع كفيه عند فمه وصرخ:

- شرطة.. الحقوا! النجدة!.. يا شرطة!..

شقّ الرجل طريقه في الزحام الذي كان يزداد باتجاه الشرطي الواقف على الرصيف:

- يا سيدي، هل باستطاعتك الذهاب معي؟

- ماذا هناك؟

- إنهم يضربون رجلاً في ذلك الخان.

- لا دخل لي.

- أنا شرطي مرور، وإذا تحركت من هنا يتشابك المرور، وتضيع الطّاسة.

ثم عاود الرجل الصراخ:

- الشرطة!.. ألا يوجد شرطة؟!

شرطي يمشي بسرعة، ركض خلفه: يا سيدي..- دقيقة لو سمحت، هناك رجل يُضرب، ألا تذهب إليه؟

- لا دخل لي. الشعبة الثانية مسؤولة عن هذه الأعمال. أنا أهتم بجوازات السفر.

الرجل يركض بحماس من جهة إلى أخرى ويصرخ بأعلى صوته:

- الشرطة.. إنهم يضربون رجلاً! يا شرطة..

هاه.. جاء شرطي من الجهة المقابلة، فأسرع إليه:

- رجاء تعالوا معي، هناك جريمة.

- لا دخل لي! أنا شرطي، ولكن حارس مفرزة.

الزحام يزداد. ركض إلى شرطي يتكلم مع أحد الباعة:

- أرجوك يا سيدي، أسرع، إنهم يضربون رجلاً..

- لا دخل لي.. أنا شرطي بلدية.

الشرطة كثيرة ولكن لسوء الحظ لا أحد يتدخل.

- ألا يوجد شرطة؟ .. يا شرطة.

- عفواً، من أي شعبة أنتم؟
- من الشعبة الثانية.
- صدفة رائعة.. إنهم يضربون رجلاً هناك، هلاّ أتيتم إليه؟
- لا دخل لي. أنا من الشعبة الثانية أي نعم، ولكني أهتم بشؤون السرقة.

ركض الرجل إلى ميدان العزامة، والتصق بأول شرطي رآه:

- رجاءً تعال معي، إنهم يضربون رجلاً.
- لا دخل لي..
- ألست من الشعبة الثانية؟
- من الشعبة الثانية نعم ولكني أهتم بشؤون التهريب، يجب أن تجد شرطياً يهتم بالأمن الجنائي.

رجع إلى الخلف مرة أخرى، وقد أغلق ازدحام الناس الشارع. أمسك شرطياً آخر:

- هل أنت من الشعبة الثانية؟
- نعم.
- من الأمن الجنائي؟
- نعم..

رجلاً..

- أين؟

- هناك.

- لا دخل لي.

- لماذا؟

- ليست منطقتي.. أنا مسؤول عن منطقة سورماكير..

رجع الرجل، لكنه لم يفقد حماسه، ثم التقى بشرطي:

- عفواً. هل أنت من الشعبة الثانية؟

- نعم.

- من الأمن الجنائي؟

أي نعم.

- هل أنت مسؤول عن هذه المنطقة؟

- نعم.. ماذا هناك؟

- دخيلك، يا أخ، هناك في الخان يضربون رجلاً.

- لا دخل لي. اليوم أنا في إجازة.

اقترب أحدهم من الرجل وهمس في أذنه:

- يا أخ، مررت بنفس الموقف و أعرف، لا تبحث عن الشرطة هكذا. إذا أردت الشرطة، قف في هذا الميدان واصرخ: "ما هذه الرذالة؟!".

- ما هذه الرذالة؟! العمى.. هل رأيتم مثلها؟! ما هذه الرذالة؟!

وأراد أن يتابع، إلا أن عدة رجال أحاطوا به و أمسكوه:

- امش إلى المخفر.

- ومن أنتم؟!

- شرطة مدنية، شرطة سياسية...

بدأ زعيق الصفارات، هرع أولاً الشرطي الذي هو في الإجازة ثم المسؤول عن منطقة سور ماركير، وكلما ازداد الصفير تكاثر أفراد الشرطة. وجاء أيضاً شرطي المرور وشرطي البلدية.

رأى الرجل الذي نصحه بالصراخ وسأله:

- أنت لست شرطياً؟

أخذوه إلى المخفر من أمام الخان الذي نشبت فيه الخناقة، والجريح يتألم على الأرض. فقال شرطي:

- يا حرام!

شرطي المرور:

- هل هو من أقاربك؟

- الرجل:

- لا..لا أعرفه.. ضاعت الإنسانية، بحثت عن الشرطة للمساعدة.

- امش امش بسرعة، دماء هذا المضروب لوثت الشارع.
بعد أن أضعك في المخفر، سأرجع لأكتب له مخالفة نظافة.

متعة الأحد

العمل والتعب منعاني من زيارتهم. في الحقيقة هذا عيب، أحب يلشين كثيراً، وزوجته امرأة جيدة. لقد مر عام تقريباً على زواجهما، دعاني مرات عديدة لزيارته، وعذري دائماً العمل والتعب.. بينما في الواقع عدم زيارتي لهم عائدة لعدم وجود النقود.

لا يُعقل أن يذهب الإنسان لزيارة صديق، فتح بيتاً جديداً، ويمشي مثلما يمشي الجنود، ويهز يده الفارغة.. من قلة النقود، لا يستطيع المرء أن يظهر ما بداخله. هناك مزهريات، ثريات، ثياب جديدة، كل شيء موجود لكن النقود غير موجودة.

آخر لقاء مع يلشين قلب وجهه لأني لم أزره.

- طيّب.. طيّب. سأزوركم هذا الأحد.. قلت له.

بذلت جهدي، لكن لم أستطع الحصول على أي شيء. بحثت في البيت عن هدية، ولم أجد سوى الجرائد القديمة والورق وكومة من الأغراض غير النافعة. ذهبت يوم الأحد، أهزّ يدي الفارغة. إن أمثالنا عندما يتزوجون، يتزوجون المرأة

أن أقرع الجرس، سمعتُ زوجته من الداخل:

- بقينا في البيت اليوم.. هل يصح هذا؟ من سبعة اشهر لم نخطُ خارج هذا الباب.

وسمعت صوت يلشين بصعوبة:

- يا زوجتي العزيزة، لماذا تقولين هذا؟ تعرفين وضعنا جيداً.

- آمان يلشين.. دائماً وضعنا، ما به وضعنا؟ ألا يذهب الإنسان مرة في الأسبوع إلى السينما؟!

- يا بنيتي هل الذهاب إلى السينما سهل؟ وهل يذهب المرء إلى السينما بالكلام؟ لا يمكنك الذهاب سيراً على الأقدام، والترمواي كانت قديماً، ولا مكان في الباصات، وإذا اخترنا المكرو، فمكرو واحد لا يكفي للذهاب إلى بي أوغلو، علينا أن نركب ثلاثة.

- وَلَكْ آخ من حظي، تتكلم كثيراً، لكنك لا تحسب مصروف الدخان، في اليوم علبتين وتدفع في الشهر ثلاثين وأربعين ليرة للزهور، لا.. يلشي، هل أنا سجينة في هذا البيت؟ سأنفلق .. والله بدأت أنزعج.

قرعت الجرس قبل أن يتفاقم الشجار.

حاولا الابتسام عندما رأياني، لكن الابتسامة بَدَتْ مزيفة

قليلاً. مرت نصف ساعة من الوقت، فقلت:

- هيا لنتجول معاً، اليوم أحد وأنتما سجينا البيت، استعدا.

زوجة يلشين مستعدة من الأمس، همس يلشين في أذني:

- لا يا أخي كرامة لله، لم هذا المصروف!. لنقعد هنا ونتسلّ.

- إمش يا أخي، لنتمتع قليلاً. إذا لم تكن لدينا النقود هل نموت؟

خرجنا إلى الشارع، فقال يلشين:

- إلى أين سنذهب؟

- سترى عندما نصل.

زوجته: إلى السينما؟

- تستطيعين الذهاب إلى السينما أو المسرح في كل وقت، نحن ذاهبون إلى مكان آخر.

وصلنا إلى شيشلي[٥] سيراً على الأقدام، وعيناي موجّهتان إلى نوافذ الأبنية، وهما يتساءلان إلى أين ذاهبون.

- إلى أين يا أخي؟

كُتب على باب أحد الأبنية ورقة، "بيوت للإيجار".

---

[٥] حي في استنبول

"البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله الطبيب". هل يُعاش تحت الأرض؟ لا الشمس بل الريح لا يدخل بيتكم.

فنظرا إلى بعضهما باستغراب.

- لنرَ هذا البناء، ربما نجد لكما بيتاً مناسباً.

شدّ يلشين يدي:

- دخيلك يا أخي، ماذا تفعل؟بألف ويل ندفع إيجار بيتنا.

خافت زوجته وقالت:

- نحن ممنونون من بيتنا.

- كفى.. امشوا معي.

دخلنا البناء، فقلت لهما وأنا أدق جرس البوّاب:

- لا تتدخلا في الحديث، سأتكلم أنا. ثم قلت للبوّاب:

- أريد أن أرى بيوتاً للإيجار يا ولدي.

- حاضر يا بيك.

- أين صاحب البيت؟

- في الطابق الثالث.

- أخبره أن هناك مستأجرين للبيت. الوقت مبكر، واليوم أحد، قدرت أن أجد صاحب البيت في منزله.

فتحت الخادمة، فقال لها البواب:

- جاء مستأجرون. أخبري البيك.

- ليلقوا نظرة على البيت، إذا أعجبهم نتكلم عنه.

فقلت:

- لا، ربما أردنا سؤال البيك عن شيء ما.

وبعد دقيقة أو دقيقتين جاء البيك. بالمناسبة، إن البناء يتألف من سبعة طوابق، وفي كل طابق بيتان، وإذا كان لديكم ذرة عقل، فكروا بضخامة هذا الرجل ومظهره. خرج من الباب بطنه أولاً، وعلى بطنه حزام للباس النوم، وعلى الحزام زر بحجم التفاحة.

أخرج الرجل بطنه الكبير من الباب بصعوبة فقلت فوراً:

- ما أضيق أبواب الأبنية الحديثة.

أجابني الرجل بسعلة جافة وكثيفة.

نظرت إلى يلشين وزوجته ،قد أصابتهما الدهشة أمام ضخامة البناء وكرش صاحب البناء، يخفيان رأسيهما بين أكتافهما، وعندما سعل الرجل خافا، واختفيا خلف ظهري. فهل أقف صامتاً؟

سعلتُ سعلة قبضاي، أقوى من سعلته، ليعرف أننا لسنا من ضيعة صغيرة.

شدني يلشين:

- دخيلك يا أخي!

التفت إليه وقلت:

- لا دخيلك ولا غيره، سعلة مقابل سعلة.

- عذراً، لقد جئت في ملابس البيت. فقلت:

- خذ راحتك. نريد أن نرى بيتاً للإيجار، لا يمكنني التفاهم مع البوابين. أزعجناكم، ولكن ربما أردنا الاستفسار عن بعض الأمور.

كان الرجل يسعل في كل جملة، ثم سعل وكأن شيئاً خطر بباله:

- كم غرفة يلزمكم؟

قابلتها بسعلة قوية، فرجعت الخادمة إلى الخلف.

- على الأقل يجب أن يكون البيت بست غرف، و يجب أن يكون الصالون كبيراً.

بحثت عن يلشين، لم أجده، قد اختفى وراء ظهري، وبقدر ما انحنى داخل طرشقوته صار يشبه السلحفاة. فقلت له:

- هل يكفي ست غرف؟

- يكفي يا أخي يكفي. قالها وهو يتألم، وكأنه يسلّم آخر نفسه للرب.

فتح البواب أحد البيوت، فدخلنا.

- المدخل صغير جداً، أليس كذلك يا يلشين؟

فهم يلشين اللعبة. إن المدخل الذي نقول عنه إنه صغير، أكبر من بيت يلشين، الفرش، الزوايا، الدهان، كله ممتاز. فقلتُ:

- السقف واطي يا بيك..!

- واطي فقط! لو ركض الإنسان وقفز لدقّ رأسه في السقف.

صاحب البيت لم ينطق بكلمة. أخذنا نتفحص الغرف، كل غرفة بحجم ملعب.

- الغرف ضيقة.

- ضيقة يا أخي.

تدخلت زوجة يلشين وقالت:

- هذا البيت لا يكفي عفشنا أبداً.

- آآآ.. المطبخ معتم.

سعل الرجل وقال:

- لا.. الإضاءة جيدة في المطبخ. انظروا في كل جدار شباك.

وبعد سعلة أقوى من سعلته قلت:

- معتم، أي مهندس حمار صمم المطبخ على الغرب؟ المطبخ يكون على الشرق، لذلك هو معتم.

الرجل:

- أنا رسمت خطة البناء.

زوجة يلشين:

- لا..لا أسكن بيت مطبخه على الغرب لو قتلتموني.

- نعم.

- عفواً يا سيدي.. الإنسان يستحي عندما يقول هذا صالون، هذا ليس صالوناً، بل هو مدخل.

يلشين:

- يا أخي، الشوفاج لم يعجبني، انظر إلى شكله!

الرجل بتكلم بلا سعال:

- يا بيك، البضاعة لا نجدها بسهولة، وهذه أفضل بضاعة في السوق.

- ما ماركة سخان الماء؟

- يونكرس.

- آآآ.. أسوأ بضاعة.

- وهل دورة المياه واحدة؟

- لا، اثنتان، واحدة في الحمام و أخرى هناك.

زوجة يلشين:

- اثنتان فقط؟ لا تكفياننا أبداً.

فاستغرب الرجل:

- وهل أنتم كثيرون؟

- لا..

فتدخّل البوّاب:

عامة.

إحدى واجهتي البناء تطل على بحر مرمرة، الواجهة الأخرى تطل على المضيق وشاملجي[٦]. قال يلشين:

- لا يوجد منظر أيضاً.

اعترض الرجل:

- المضيق ومرمرة..!

- المنظر في ميدان الأوق[٧]..

- هل تقولون عن هذا المكان حمّام؟

- نعم..

- فيه رطوبة.

- صغير.

- ضيق.

- معتم.

- صحيح يا بيك، لماذا بنيتم إحدى دورتي المياه على الغرب؟!

- الغرب؟!

---

[٦] حي للأغنياء في استنبول

[٧] الأوق: مكان جميل في استنبول.

فنمرض.

- الدهان لم يعجبني أيضاً.
- نعم، وردي غامق.
- لا غامق ولا غيره، بل وردي قرباطي.

يلشين وزوجته يتحدثان حول توزيع فرشهما على الأساس.

- لتكن هنا غرفة النوم.
- لا..
- فلتكن غرفة الضيوف والموبيليا هنا.

سألت صاحب البيت:

- كم إيجار هذا البيت؟
- ألف ليرة يا بيك.

يلشين:

- انظر إيجاره رخيص جداً..!

زوجته:

- رخيص جداً، ببلاش!
- لنستأجره كرامة لرخصه. ماذا تقولون؟
- لنستأجره يا أخي.

زوجة يلشين:

- الإيجار ليس مشكلة، يكفي أن يكون لنا بيت نسكن فيه.

- تفضلوا إلى بيتي لنتكلم.

- لا نريد أن نسبب الإزعاج.

- لا أستغفر الله..

دخلنا إلى البيت، قلت:

- في الحقيقة تؤجر بثمن رخيص.

- يوجد من يدفع ألف وخمسمئة ولكني لا أثق بهم، فليكن المستأجر صاحب ناموس وتكفي ألف ليرة.

- من ناحية الناموس، لا تهتم.

دخلت امرأة بارعة الجمال، لا يتجاوز عمرها الخامسة والعشرين.

قرصتها من خدها عندما سلّمتُ عليها، وكنت سأقبلها، لكني خفت. سألت صاحب البيت عن هذه الحسناء:

- ما شاء الله، هل هذه الفتاة الحلوة ابنتكم؟

احمرَّ الرجل حتى أذنيه، فقال:

- زوجتي.

شددتها مرة أخرى من خدها، لم يجد الرجل كلمة يقولها، نظر إليَّ كما تنظر البقرة إلى القطار، أشارت إلى الخادمة.

أحضرت الخادمة المشروب وإلى جانبه الشيكولا. أخذت اثنتين ونظرت إلى يلشين، ملأ يده، قلت للرجل:

- إيجار ثلاث سنوات.

- كم تساوي؟ ألف ليرة في الشهر، يعني في السنة اثني عشر ألفاً، وفي ثلاث سنوات ستة وثلاثون ألفاً..، لا شيء.

يلشين:

- لا شيء أبداً.

زوجته:

- لا شيء إطلاقاً.

سأل الرجل:

- كم شخصاً سيسكن البيت؟

- يلشين وزوجته فقط.

الرجل:

- آه، الحمد الله، هل لديكم أولاد؟

- لا.

- سيدي في البداية يقولون ليس لدينا أولاد ثم يجعلون البيت حضانة.

- لا أبداً.. السيدة عاقر.

- أوه، أوه.

- وإذا سألتم عن زوجها، فالأمر معيب، قديماً خضع لعملية ولذلك لم ينجبوا أطفالاً.

- لا..لا أحد يا سيدي، لقد تبنيت هذا الشاب منذ كان عمره سنة من دار الأيتام.

- أوه، أوه.. جيد جداً.

وهذه الفتاة تركوها في زاوية الجامع، وكان عمرها أسبوعاً فقط، لا أقارب ولا من يحزنون.

- أوه، أوه..

ثم قال للخادمة:

- أحضري القهوة.

فقلت على الفور:

- لا يا سيدي. شكراً، لا نريد قهوة.

- لماذا يا سيدي.

- لم نتناول الطعام بعد.

- هاه، صحيح.. عفواً. إذا سمحتم، سنأكل الطعام معاً.

- أستغفر الله يا بيك، على شرط أن تشرفونا، كي نقبل دعوتكم.

- استغفر الله.. إن شاء الله بعد أن تسكنا هنا..

أنزلنا الطعام الفخم في معدتنا، وشربنا القهوة، ثم استمر الرجل بتحقيقه، وسأل يلشين:

- عفواً يا بيك. ماذا تعملان؟

سارعتُ إلى نجدته فوراً:

- عمله جيد جداً، ولو أنه يدخل السجن أحياناً.

تغيرت ملامح وجه الرجل:

- هل هو صحفي؟

- لا .. من أين له هذا؟

- هل يعمل في السياسة؟

- لا يا سيدي، من عمله يدخل السجن.

- هاه.. فهمت. قضايا تجارية، في السوق السوداء..

- آه.. مثل هذا..

- أوه.. أوه.. أنا مسرور.. إذا نحن متفقون؟

- طبعاً، لنكتب العقد فوراً.

ملأ الخوف قلب يلشين وزوجته، عندما سمعا كلمة عقد.

أوراق العقد جاهزة مع الرجل، وبدأ يكتبها فوراً، وعندما وصل للسؤال عن استخدام البيت، كتب أمامها "للإقامة" فقلت:

- توقفا، لن نستخدم هذا للإقامة.

- ماذا إذاً؟ غرفة للتجارة، مكتب، إدارة، أي منهم؟

- لا يا سيدي، سنستخدمه كملهى.

نهض الرجل وقال بغضب:

- لم أفهم يا سيدي..

- أرجوكم!

- لا رجاء ولا غيره، هل من حلٍّ آخر لأدفع لكم ستة وثلاثين ألفاً إيجار يا بيك؟ هل من عمل آخر أجمع منه هذه النقود؟ إذا أعجبكم طبعاً..

- لن أعطيكم البيت.. قالها وهو يرتجف.

هل يندم الرجل على المشروب، أم على الطعام، أم على القهوة، أم على قَرْصِ زوجته؟ على أي شيء يندم؟

- أستودعكم الله يا سيدي.

- مع السلامة.

سعل الرجل فسعلتُ سعلة أكبر، وعندما خرجنا من باب البناء، سألني البواب:

- هل استأجرتم يا بيك؟

فقلت له:

- أردنا أن نستخدمه "ملهى" لذلك لم يؤجره.

- طبعاً لن يؤجر.

- لماذا؟ هل هو متعصب دينياً؟

- لا.. ليس لهذا السبب، لأنه يقوم بهذا العمل في الطابق الثالث، لا يحب أن ينافسه أحد في البناء.

يلشين:

- بحياتي لم أتمتع كما تمتعت اليوم..

زوجته تمسك بطنها من شدة الضحك وتقول:

- كم يساوي المسرح الكوميدي أمام هذا؟

- يا أخوان كل إنسان يتمتع حسب نقوده..

وبعد ذلك اليوم، كلما ملَّ يلشين وزوجته يذهبان للبحث عن بيوت للإيجار في الأبنية مع أصدقائهم، وكلما كثُر العدد كانت المتعة أكبر.

أبناء البلد في المباراة

كل يوم أتشاجر مع المعلم، لأنني أتأخر عن العمل، من يصل إلى عمله في الوقت المحدد؟ طبعاً لا أقصد من يملك سيارات خاصة. لا يمكن أن يصل الإنسان إلى عمله من زحام المرور، إلا إذا خرج من بيته في منتصف الليل.

نهضت باكراً هذا الصباح، وصممتُ أن أكون في الوقت المحدد في مكان عملي مهما كلفني الأمر. لكن أسرع طريقة للتنقل من مكان لآخر في استنبول هو السير على الأقدام، وهذا ما فعلته.

فمشيت ولم أنتظر ميكروبايات أو باصات أو أفطس في زحمة الترامواي.

في طريقي، دخلت بين مجموعة من الناس، وأية مجموعة! فقلت لنفسي "لا بد أن هؤلاء الناس قد خرجوا من بيتهم باكراً ليلحقوا عملهم مثلي". ناس من كل الطبقات، ومن كل الأعمار، أولاد، رجال، نساء. إن هذه المجموعة مصيبة. لا يمكنني المرور بينهم. فقلت لأحد الواقفين بجانبي:

السير على الأقدام، وأظن أنكم ذاهبون إلى عملكم.

فقال بكل برودة:

- أي عمل؟! إنهم يوزعون البنّ، والناس ذاهبون إلى هناك.

ما أن سمعت كلمة "بنّ" طار عقلي من رأسي ونسيت عملي. عندما كان البن متوفراً، لم أكن أشرب القهوة، حتى ولو كنت في زيارة فإني أشرب فنجان القهوة خجلاً من مستضيفي. ولما توقف استيراد البن، وانقطع من السوق أصبحت أموت من أجل شرب القهوة. ما هذا؟ عندما تتوفر القهوة لا تشربها وعندما تفقد تصبح مدمنا..

هذا كلام فارغ لأني لست الوحيد هكذا. من لم يشرب القهوة في حياته أصبح يبحث عنها في السوق السوداء.

صرختُ:

- آخ.. بن؟ .أين؟

- من يخرج في هذه الساعة المبكرة من أجل العمل؟ ذاهبون لقطع الفيش لشراء القهوة.

بين الرفس والدفش وصلتُ إلى شباك قطع الفيش، قلت له:

- قهوة لو سمحت..

- نعم؟! قهوة ماذا؟!

- أي قهوة.. لكن حبذا لو كانت قهوة برازيلية، لأنها أطيب كما تعلم.

ليرات.

هل يوجد في الدنيا رذالة مثل هذه؟ يغرون الفقراء أنهم يوزعون البن، ثم يجبرونهم على شراء بطاقة مباراة. طيّب، سأعود. ولكن الدفش من الخلف، وشرعوا يضربون على ظهري.."امش يا أخ، انضرب بدون نقود..".

وعندما يئست من الرجوع قلت له:

- الله يجازيكم.. لتكن صدقة من عيني ورأسي.. هات بطاقة.

أصبح همي بعد شراء البطاقة الهروب من هذه المعمعة.

لا.. غير ممكن، الرجوع مستحيل. المواطنون يضربون ويسبّون من يرجع. اذهب إلى الأمام لا رجوع لك. لقد علمونا في الجيش هذا النشيد:

"نموت، نموت، نموت، ولن نتراجع، ولن نتراجع، ولن نتراجع، لو تراجعنا فلنكن قليلي الناموس.." .هنا أيضاً لا رجوع. دخلت من الباب بمشقة. أدخلوني دحرجة سَلِمَتْ أيديهم. إذا غضب المعلم الآن سأقول له: "لو كنت رجلاً تعالَ معي، واخلص من هذا الزحام..". "لو كان (زال أوغلو ستام[٨]) هناك لما استطاع الخروج..".

---

[٨] رجل مشهور بقوته

أشاهدها. لا أعرف اللاعبين، ولا المنتخب، كنت أراقب المشاهدين أكثر من اللاعبين.

وقف إلى جانبي رجل في الستين من عمره، فكرت أنه جاء إلى هنا بالقوة مثلي، لأن زوجته وابنته وابنه معه. بدأنا الحديث. إنه مثلي مهموم، اسمه عفان، موظف ودخله قليل. عنده ولد عمره ثمانية عشر عاماً وما شاء الله مثل لوح الباب (طويل عريض)، وبنت حلوة مثل الراحة. فقال لي:

- لا أفهم شيئاً من المباراة طوال عمري. ولم تلمس الكرة قدمي، بدأ فضولي بعد الستين. اسمع يا بني.. كيف أبدأ!. ثم تابع:

- تعرفون طبعاً أن ظروف الحياة صعبة، لا أستطيع شرح هذا لأفراد أسرتي الأعزاء. الولد شقي، لا يعمل، لا يدرس، ولد عاطل.. والبنت (كريمة) على هواها، ولا تسأل عن زوجتي، إنها تعيش في عالم آخر، لا تفهم لا من الجود ولا من الموجود. مهما قلت لهم، لا يفهمون. كأني أغني في الطاحون! لو كنت مكاني ماذا ستفعل؟ من لا يفهم بالنصيحة حذّره، ومن لا يفهم الإنذار، يستحق الضرب بالعصا. ولا حيلة لي لأضرب بالعصا. الولد كما ترى ضخم، والبنت ثقيلة، وزوجتي مخيفة.. ولو حاولت تأديبهم لدهسوني مثل صرصور. فوجدت الحل في المباراة، نأتي جميعاً إلى المباراة. عند شرائنا البطاقات يتشتتون في غمرة الزحام. وبعد ذلك يأتي عناصر الشرطة الله يديمهم

تبدأ الشجارات، وعندها يا سيدي تصبح زوجتي عصيراً ، وكريمة مقدداً. يبقى ابني منتصباً على قدميه، فخلال المباراة يزعق بأعلى صوته، فيشبعونه ضرباً. أحيانا تصيبني ضربة عصا أو لكمة ولكني أتحمل. وعند عودتنا من المباراة في الباص أو الميكرو، ينهرس ما سَلِم منا، فنعود إلى البيت مثل المخلل. وهكذا يا سيدي أنتقم من أفراد الأسرة، وإلا والله لا أفهم شيئاً من هذه المباراة.

حديث عفان بيك أثار فضولي. يا ترى لماذا جاء الباقون إلى المباراة؟!

التفت إلى رجل خلفي، من بداية المباراة و هو يضربني على إليتي، شكله يشبه أناس بحر الأسود. سألته: -أي فريق تشجع؟

- لا أشجع فريقاً ولا بطيخ. أبناء البلد يأتون يوماً إلى هنا ويتكلمون عنه ستة أيام في المقهى. وقد أثار ذلك فضولي فجئت إلى هنا..

- كيف وجدت المباراة؟

- انظر من وقت طويل، ولم أفهم شيئاً. يضربون الكرة ويركضون خلفها. إذا ضربوها لماذا يركضون خلفها؟ وإذا كانوا سيركضون خلفها لماذا يضربونها؟

في تلك اللحظة دخلت الكرة إلى المرمى، فضربني الرجل الذي قال إنه لا يفهم شيئاً من شدة الهيجان وقال:

أمامي رجل أهدابه كثيفة، وأنفه كالمنقار، وشارباه وسخان، عيونه دوّاره، وقد تجاوز الخمسين من العمر. واقف بين المشاهدين لكنه غير مهتم بالملعب، إنه ينظر إلى أماكن أخرى، فقلت له:

- أظنكم تحبون المباراة؟
- يثير فضولي ضارب الكرة وليس المباراة.
- إذاً، لم تسرّوا بالمباراة؟
- لا.. إني أحضر المباراة لأتعرف على وجوه اللاعبين. لا أنظر إلى الكرة، بل إلى من يضرب الكرة.

ابتعدت من مكاني، فوجدت امرأة تصرخ بحماس، في الستين من عمرها. واضح أنها عاشت حياتها، وأخذت حقها، فتحدثت عن سبب مجيئها إلى المباراة:

- آه يا بني.. هل أحوالي تسمح بحضور مباراة أو غيرها؟! السبب مختلف، فأنا أحضر المباريات في الصيف والسبب معروف، لأن المياه تنقطع في الصيف وتصبح استنبول مثل كربلاء، ماذا أفعل؟

أجمع الأولاد ونأتي إلى الملعب. أعطي لكل واحد منهم قنينة، وأنا آخذ تنكه، أو سطل، أو أي وعاء آخر. الله يديم الإطفاء.. رجالها يضخون المياه على المحتشدين عند باب الملعب وأثناء ذلك أحمّم الأولاد، وأملأ الأوعية، والأولاد يشاهدون

من الدكان، وإلا بعد هذا العمر ما عملي في أماكن كهذه؟

رأيت إحدى معارفي، وهي بالمة غربول، فسألتها :

- ماذا تفعلين هنا يا بالمة، تتابعين المباراة؟

- دعك من المباراة.. أنت لست غريباً، تعرف اللاعب عدنان..؟ لقد أحببته، إنه يحب الماء كثيراً. بقيت سنوات في البحر من أجله، وبعده أحببت حيدر الكبش..لا فرق بينه وبين الكبش الجريان، والآن أركض من مباراة إلى مباراة، من أجل لاعب في فريق (فنار بهجي) خيري الغصن.

سأخبرك شيئاً: لا يغرك مظهر الرياضيين أو ملابسهم، لقد جربتهم جميعاً، لا يستطيعون القيام بأي عمل نافع..، أما الزملاء فإنهم يقرؤون المولد النبوي ويمدحون الشيوخ الحافظين للقرآن الكريم، لعلّي سأتوب وأبحث عن إمام أو حافظ قرآن.. ما لي أنا ولهذه المباراة؟

التفت إلى مواطن يشاهد المباراة وجهه حزين. فقلت:

- لا بد أنك تشجع الفريق الخاسر، ألهذا أنت حزين؟

حالته مثل حالتي فقال:

- لم أرَ مثل هذه الفوضى في حياتي.. كنت ماراً في الشارع، فدخلت في الزحام بالضرب والدفش. جلبوني إلى هنا،مع أنه لدي عمل مهم، أنظرُ إلى هؤلاء الأولاد فينقطع قلبي.. ما هذه الرذالة؟

بعضهم. إذا أطعمني الله وخرجت سليماً من هنا، عاهدت نفسي أن أشتري لكل منهم قطعة جلد ليلعبوا وينامو بسعادة.

لم أتوقع وجود علاء الدين بيك، إنه مغلوب دائماً في حياته، مخَوْزَق دائماً. في بداياته، عندما كان يترأس حزباً ما،كان يعارض قرارات الحكومة دائماً، لذلك لقبوه بالمعارض. يتكئ على عصاه، ويذهب إلى كل مباراة. فتحدث عن اهتمامه بالمباراة:

- في الحقيقة، منذ عشر سنوات لم أدع مباراة تفتني، هل تظنون أن الآلاف تأتي إلى الملعب لمشاهدة المباراة؟ أستغرب تفكيركم هذا.. صدِّقني عشر سنوات وأنا أحضر كل مباراة، ولا أعرف أي فريق يلعب مع أي فريق. اطمئن، حالُ أغلب المشاهدين مثل حالي، نأتي من أجل الصراخ، ولنفرغ قلوبنا من الهمّ. نشتم كما نشاء، ننتقد كما نشاء، نصرخ كما نشاء.. الحرية في الملاعب حتى الركب. اصرخْ بكل قوتك، لا قانون المطابع، ولا القانون المدني يحاسبك، وعندما أشتم اللاعب الواقف في منتصف الملعب أو الذي في جناح اليمين فهل أنا أقصده؟ طبعاً لا.. أنظر إليه أتخيله مدير دائرتنا فأقول له "هيش".. مثلاً. غاضبٌ من زوجتي فأقول "يا بقرة"، أو غاضب من سائق قليل الأدب أضرب أحد الحضور بقنينة كازوز. أضرب الحكم بعكازي فأرتاح. وإلا فهل آلاف الأشخاص

أجل الحرية..

انتهت المباراة، هجم الناس إلى الباب، اندفعوا منه مثل الشمبانيا عندما تنفجر من زجاجتها. دُعسَتْ أعضاء جسمي التي بقيت سليمة عند دخولي إلى الملعب.

وبصعوبة متناهية تحاملت على نفسي وذهبت إلى عملي. فقال لي زملائي إن المعلم كان في المباراة، وجُرح هناك، لقد جاء منذ قليل، مضمد الرأس. ولأن لديه سيارة وصل قبلي. بعد قليل أخبروني أن المعلم يطلبني. ذهبت، ولم ألمح قساوةً في وجهه، لأنه متأثر بالضماد الملفوف على رأسه، فقال لي:

- تأتي في المساء إلى العمل؟ هل كنت نائماً عند أحد معارفك؟!

قلت له وكأني لم اسمع ما قاله:

- يا سلام يا بيك، ما أروع وما أصعب المباراة اليوم!

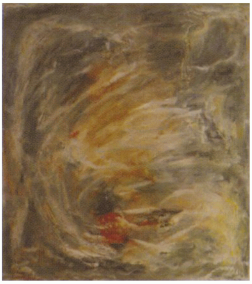
نَعِمَ صوته وقال:

- اجلس لنشرب فنجان قهوة.

أحضر الخادم فنجان قهوة من بن المعلم الخاص الذي يشتريه من السوق السوداء. بدأ المعلم يشرح لي عن تفاصيل المباراة بينما كنّا نشرب القهوة اللذيذة.

ومنذ ذلك اليوم، أصبح المعلم يحبني اكثر من زملائي، لأني تظاهرت بأني أشجع الفريق الذي يشجعه.

الفهرس



لوحة الغلاف: الفنان د. علي سليمان

لا تنزع

عندما نقول: «مجدفين»، يخطر في بال المرء أولئك القراصنة الذين كانو على سفينة بربروس: صدورهم مكسوة بالشعر، أطوالهم بطول العمود، عضلاتهم قوية، يشدون السفينة بأقدامهم إن أرادوا.

لكن، نكاية بحكمت النحات، تقزّموا من الأجداد إلى الأحفاد كمستوى دخلنا في الحياة. وعندما أعلنت نتائج آخر خطة لتطوير الاقتصاد في بلدنا، أخذ حكمت طول مواطن ديمقراطي، قصير، لطيف، صاحب روح رفيعة، أنيق، والمعنى أن كل المواصفات التي تبقيه جائعاً موجودة فيه.

دار كيـــوان
للطباعة والنشر والتوزيع
الحلبوني - دمشق - سوريا
تلفاكس: 00963 11 2217240